



مفهوم التصوف في الإسلام وتطوره وأهميته في حياة الفرد والمجتمع

أ . بشير عبدالله القلعي
جامعة المرقب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل فلاح الإنسان في تزكية نفسه فقال في محكم كتابه : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ (1) وأقام دعائم الهداية على المجاهدة فقال : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (2) . وجعل ذكره المبارك سبباً لطمأنينة القلب فقال : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (3) . والصلاة والسلام على خير خلقه سيدنا محمد الذي بعث لإتمام مكارم الأخلاق وتزكية النفوس حيث قال تعالى : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (4) وعلى آله وصحابته الذين شفوا من أمراض النفس المهلكة بفيض الصحبة النبوية والمجاهدة الشاقة .

هذه ورقة بحثية بعنوان (مفهوم التصوف وتطوره وأثره في حياة الفرد والمجتمع)

---

(1) الشمس:6ـ8
(2) العنكبوت:69 .
(3) الرعد: من الآية28 .
(4) آل عمران: من الآية164 .

فأقول وبالله التوفيق :

مفهوم التصوف : مرّ التصوف في الإسلام بمراحل متعددة ، وتواردت عليه ظروف مختلفة ، واتخذ تبعاً لكل مرحلة ووفقاً لما مر به من ظروف ، مفاهيم متعددة ، ولذلك كثرت تعريفاته ، وكل تعريف منها قد يشير إلى بعض جوانبه دون البعض الآخر ، وسبب اختلاف أهل التصوف في تحديد مفهومه ووضع تعريف محدد له يرجع إلى أمرين :

الأول : أن كل واحد منهم عرّف التصوف بما انكشف له من معناه ، وما مرّ به من أذواق وأحوال ومقامات ، وهذا من طبيعة الأشياء ، فلو عرض منظر جميل على جماعة من محترفي الرسم ، وطلب منهم التعبير عنه ، فإن عبارة كل منهم ستختلف عن الآخر بحسب ما انكشف لكل منهم ، من جمال هذا المنظر وروعة صورته وتوزيع ألوانه ، فكيف لا يختلف الصوفية في تحديد مفهوم التصوف ، وهو أمر مداره على القلب والروح والتجربة الذاتية .

والأمر الثاني : أن اختلافهم في التعريف يرجع إلى الغاية من التصوف ، فمن رأى أن الغاية من التصوف هي تهذيب النفس ، وطهارة القلب ، وضبط الإرادة ، وإلزام الإنسان بالأخلاق الفاضلة ، فإنه يأتي تعريفه للتصوف معبّراً عن ذلك ، فأصحاب هذه الغاية تدور كل تعريفاتهم على أن التصوف أخلاق وأداب وطهارة قلب ، وهذا التصوف يتميز بأنه تربوي ، وتغلب عليه الصبغة العملية ، ومن تجاوز هذه الغاية إلى غاية أبعد ، وهي معرفة الله تعالى فإن تعريفه للتصوف يأتي بحسب ما انكشف له من المعرفة ، فأصحاب هذه الغاية يعتنون بشكل خاص بالكلام على مناهج المعرفة وأدواتها ويؤثرون من بينها الكشف[1] ، ولا شك أن معرفة الله تؤدي بالإنسان إلى الالتزام بالآداب الشرعية والتحلي بالأخلاق الفاضلة ، والوقوف عند حدود الله أمراً ونهياً وفعلاً وتركاً ، وعلى هذا يظل هناك أساس واحد للتصوف لا خلاف عليه ، وهو أنه أخلاقيات مستمدة من الإسلام ، وهو ما أشار إليه ابن القيم ــ رحمه الله ــ قائلاً : (واجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق) [2]، وعبر عنه

(1) مدخل إلى التصوف الإسلامي ، أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، ص9 ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ط3 ، القاهرة .

(2) مدارج السالكين شرح منازل السائرين ج 316 ، مطبعة المنار 1332 هـ .

الكتاني بقوله : (التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء)[1] . وسئل أبو محمد الجريري عن التصوف فقال : (الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني) [2] .

يقول الدكتور أحمد الشرباصي : وقد اهتم الصوفية أكبر الاهتمام بالأخلاق ، بل لقد جعلوا الأخلاق في مناهجهم هي العماد والسناد ، فهي عمود أمرهم كله بحيث لو رفعت كلمة «التصوف» ، ووضعت بدلها كلمة «الأخلاق» لما فارقت الحقيقة ، ولما جانبت الواقع في قليل أو كثير ، لأن العمدة في التصوف على مجاهدة النفس وتطهيرها ، وتحليتها بكل جمال وكمال ، وهذا جماع مكارم الأخلاق[3] اهـ .

التصوف إذاً في أساسه خلق ، وهو بهذا الاعتبار روح الإسلام ، لأن أحكام الإسلام كلها مردودة إلى أساس أخلاقي ، ذلك أننا إذا نظرنا إلى القرآن الكريم فسنجده قد جاءنا بأنواع مختلفة من الأحكام الشرعية ، وهي تندرج بوجه عام تحت ثلاثة أقسام رئيسة [4]: العقائد ، والفروع (عبادات ومعاملات) والأخلاق . وإليك توضيح ما ينطوي عليه كل قسم :

أما العقائد فتشمل على الإيمان بوجود الله الصانع القادر المختار ، ووحدانيته وعبادته وحده لا شريك له ، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، وقد اختص بدراسة هذا الركن من أركان الدين وهو الإيمان علماء التوحيد[5] .

أما الأحكام الشرعية الفروعية التي تضمنها القرآن الكريم ، فتشمل على أحكام العبادات والكفارات والمعاملات المالية وأحكام الأسرة وأحكام الجرائم والعقوبات المقررة عليها وأحكام الدولة ، وما إلى ذلك مما هو متضمن في كتب الفقه ، وما حوته من جهود واجتهادات فقهاء الإسلام ، من مؤسسي المذاهب الفقهية ، وتلاميذهم على مر العصور .

(1) الرسالة القشيرية بتحقيق هاني الحاج ص 387 .
(2) المرجع السابق ص 385 .
(3) مجلة الإصلاح الاجتماعي ، ص4 ، حلب – سوريا .
(4) أصول الفقه الإسلامي لزكي الدين شعبان ص 11 ط 2 دار الكتب 1971 . بيروت .
(5) حقائق عن التصوف عبدالقادر عيسى ص 381 منشورات دار العرفان ط 11 (2001 حلب سوريا) .

بقيت بعد ذلك الأحكام الشرعية الأخلاقية ، وما ورد بشأنها في كتاب الله من الآيات الكثيرة التي تحث على مكارم الأخلاقْ ، كالزهد والصبر والتوكل والرضا والمحبة واليقين والورع وما ينسب إليها مما يُحَثُّ عليه ، ويندب إليه كل مسلم حريص على كمال إيمانه .

وقد بين لنا القرآن الكريم أن الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة لمن يريد التكمّل والتحلّي بهذه الفضائل في أرقى صورها وأسمى معانيها . والحقيقة أن أخلاق الإسلام هي أساس الشريعة ، بحيث إذا افتقرت أحكام الشريعة ـ سواء في ذلك الأحكام الاعتقادية أو الأحكام الفقهية ـ إلى الأساس الخلقي كانت صورة لا روح فيها ، أو هيكلاً فارغاً من المضمون .

إن التدين ليس مجرد التمسك بشكليات الدين دون جوهره ، أو ادعاء التدين لتحقيق مآرب ذاتية ، وإنما التدين هو الفهم الواعي للدين والعمل به بما يربط حياة التعبد بحياة المجتمع ، فلا ينعزل الدين ويتقوقع أصحابه بعيداً عن ميادين الحياة ومراكزها الاجتماعية .

إن أهم ما ينبغي أن يفهم عليه الدين الإسلامي أنه في جوهره أخلاق بين العبد وربه ، وبينه وبين نفسه وبينه وبين أسرته ، ثم بينه وبين أفراد مجتمعه . ولكي يتبين في وضوح وجلاء أن أحكام الشريعة كلها ترجع إلى أساس أخلاقي ننظر في أحكام الإيمان أولاً [1].

إن الإيمان بالله تعالى ، وبوحدانيته تنافيه أخلاق الحرص والجزع والخوف وعبادة المال واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان ، وينافيه ـ أيضاً ــ الاستناد والركون إلى الخلق دون الخالقْ وتنافيه قسوة القلب وغلظته ، وانعدام الأمانة ، وما لم يطرح الإنسان من نفسه هذه الأخلاق المذمومة لا يكون إيمانه كاملاً صحيحاً .

ولعلنا ندرك هنا عمق المعنى في أحاديث الرسول ﷺ مثل قوله : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[2] .

---

(1) مدخل إلى التصوف الإسلامي د . أبو الوفا التفتازاني ص 13 وما بعدها .

(2) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس لإسماعيل بن محمد العجلوني 158/1 منشورات دار الكتب العلمية ط1 – 1997 – بيروت لبنان .

وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [1].

وقوله : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق » [2].

ومن الملاحظ بعد هذا أيضاً أن جميع عبادات الإسلام ومعاملاته ، ما لم تقم على أساس أخلاقي ، لا يكون لها قيمة أو فائدة ، ولا تكون مقبولة عند الله ، وخذ لذلك بعض الأمثلة :

الصلاة : نجدها في الإسلام طهارة للنفس وترقيقاً للقلب ، وتحلية للإنسان بفضائل الهيبة والخشوع والمشاهدة والمراقبة والمناجاة مع الله تعالى والأنس به ، وبدون هذه المعاني تكون الصلاة هيكلاً فارغاً من المضمون ، وهي فوق هذا تنهى الإنسان عن مقارفة الذنوب والإتيان بالفحشاء والمنكر ؛ لقوله تعالى : ﴿**إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾ [3]. ويقول ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً » [4].

وانظر إلى **الزكاة** تجدها أيضاً تطهيراً للنفس من الشح والبخل ، وتطهيراً للقلب من الحرص وعبادة المال ، وركناً من أركان العدالة الاجتماعية ، والتكافل الاجتماعي الذي دعا إليه الإسلام . يقول الله تعالى : ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ [5]. ويقول تعالى : ﴿**وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ**﴾ [6]. وقد نهى المشرع الحكيم عن المنِّ بالزكاة والصدقة على الغير وأمر بالابتعاد بها عن معنى الرياء . يقول تعالى : ﴿**يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَٰفِرِينَ**﴾ [7].

وتأمل **الصوم** تجد له غايتين :

---

(1) البخاري حديث رقم 13 .
(2) كشف الخفاء 335/1 .
(3) العنكبوت الآية 45 .
(4) كشف الخفاء ج2 / 247 .
(5) التوبة الآية رقم 103.
(6) النور الآية رقم 33 .
(7) البقرة الآية رقم 264 .

الأولى : صفاء النفس وضبط الإرادة مما يمكّن الإنسان من التدرج في مدارج الكمال الأخلاقي ، فيحقق معنى إنسانيته في هذه الحياة .

والثانية : الترقي بالمجتمعات البشرية بعد الترقي بأفرادها أخلاقياً ، ولما كان الصوم زهداً وتقشفاً وصبراً على الحرمان من مألوف الحياة ولذاتها ومشتهيات الطبع الذي يركن إليها أفراد البشر في أحوال الدعة والترف ، كان الصوم شعاراً للمجتمعات الجادة التي تبني نفسها ، المجتمعات التي تحتمل آلام الحرمان من اللذات والكماليات في سبيل بناء حياة أفضل ، وتحقيق رقي اجتماعي أكمل .

والحج : في الإسلام عبادة تهدف إلى تهذيب الأخلاق أيضاً فالحج في جوهره تقرب إلى الله وعبودية تامة له ، وفيه عودة إلى الفطرة الأولى ، وإشعار بالمساواة بين أفراد البشر حيث يقف الحجاج أمام الخالق في زيّ موحّد ، فلا فرق معه بين فرد وآخر ، وفيه غير ذلك من المعاني الأخلاقية العالية ، والصور السامية كالتعارف والتواصل الديني والاجتماعي ، وذلك من أهداف الإسلام الكبرى يقول الله تعالى : ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [2]، وقال عليه الصلاة والسلام : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » [3].

والمعاملات : هي الأخرى في الإسلام أيضاً لا بد لها من قواعد أخلاقية وضوابط معينة ، يراعيها المسلم مع من يتعامل معه من أفراد مجتمعه ، فلا استغلال ولا احتكار ولا غش ، إذ يقول ﷺ : « من غشنا فليس منا » [4]، ويقول أيضاً : « التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء » [5]. وقد سئل العارف بالله إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ عن التاجر الصدوق ، أهو أحب إليه أم المتفرغ للعبادة ؟ فقال : التاجر الصدوق أحبّ إليَّ ، لأنه في جهاد ؛ يأتيه الشيطان من طريق المكيال والميزان ،

(1) سورة البقرة الآية 197 .
(2) سورة الحج الآية 26 .
(3) رواه أحمد والنسائي ، كشف الخفاء 277/2 وسنه ابن ماجة حديث رقم 2889 .
(4) رواه مسلم حديث رقم 101 ، دار المغني ط 1 1998 .
(5) له روايات عديدة ، انظر كشف الخفاء 264/1 .

ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده [1]ا هـ .

ومما سبق تبين لنا أن جوهر الدين هو الأخلاق ، ولعلك تدرك بعد هذا عمق المعنى في قوله تعالى مخاطباً رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [2]. وقوله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[3].

وقد رسم لنا الإسلام طريق التحقق بالكمال الأخلاقي الذي دعا إليه ، فأمرنا بجهاد النفس بتخليتها عن مذموم الأخلاق ، وتحليتها بأضدادها من الأخلاق المحمودة وقد ورد في حديث الرسول ﷺ عند عودته من إحدى الغزوات : « عدتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قالوا وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه »[4] ويجب أن ننتبه على أن الإسلام حين يدعو إلى جهاد النفس ، حريص كل الحرص على تكوين المواطن الصالح من أجل المجتمع الصالح ، لأنه إذا صلح الفرد صلح المجتمع ، وإذا فسد الفرد فسد المجتمع .

ولا تتحقق الأخلاق الفاضلة للأفراد بمجرد سن القوانين وتوقيع العقوبات ، وإنما تتحقق الأخلاق إذا توفرت الرغبة لدى الأفراد في التغيير ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [5]، وثمرة هذا الجهاد النفسي تعود علينا بالمنفعة قال تعالى : ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [6]، وبناء على ما سبق أدرك صوفية الإسلام أهمية الأساس الأخلاقي للدين ، فجعلوا اهتمامهم موجهاً إليه ، وذهبوا إلى أن أي علم من العلوم لا يقترن بخشية الله والمعرفة به فلا جدوى منه ولا طائل تحته ، فما أكثر ما تجد من العلم في الكتب ما يسهل عليك تحصيله ، وأما الأخلاق ، فتحصيلها أمر عسير ، لأنها تكون ثمرة ممارسة شاقة ، وصراع طويل بين الإنسان ونفسه الأمارة بالسوء ، ليلزمها جادة الصواب .

ولما بحثوا في الأخلاق على هذا النحو الذي أشرنا إليه ـ على اعتبار أنها جوهر

(1) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي جـ 57/2– دار الجيل ط1 ، 1992 – بيروت .
(2) سورة القلم الآية 4 .
(3) الموطأ ص788 دار الآفاق الجديدة الطبعة الثانية 1981 بيروت لبنان .
(4) انظر كشف الخفاء 375/1 وفي رواية: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) المصدر السابق .
(5) سورة الرعد الآية 12 .
(6) سورة العنكبوت الآية 6 .

الـدين ــ أنـشأوا بـذلك علمـاً مـستقلاً مكمـلاً لعلمـي الكـلام والفقـه [1]، فـاعتبر عنـد المسلمين من العلوم الشرعية ، أي العلوم التي تستمد من القرآن والسنة ، ولهذا عرفه ابن خلدون بقوله : « علم التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله عنـد سـلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية . . . »[2].

ومن هـذا يتـبين أن التـصوف ـ بوصـفه علمـاً دينيـاً ـ يخـتص بجانـب الأخـلاق والسلوك ، وهو روح الإسلام ، والتمييز بينه وبين علم الكلام (الباحث في العقائد) وعلم الفقه (الباحث في الأحكـام الفروعيـة العمليـة) تمييـز اعتبـاري فقـط ، ولـيس حقيقيـاً ، فالأصل في الشريعة أنها واحدة ، فعلم الفقـه يـستند إلى علـم الكـلام اسـتناد الفـرع إلى الأصل ، وعلم التصوف يستند إلى علمي الكلام والفقه ، فلا بد للصوفي من علـم كامـل بالكتاب والسنة ، يقول الجنيد : (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحـديث لا يقتـدى بـه في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) [3]. ويقول الشعراني : (هو ـ أي علم التـصوف ـ علـم انقـدح في قلـوب الأوليـاء حـين اسـتنارت بالعمـل بالكتـاب والـسنة ، والتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة) [4].

إن انفصال هذه العلوم الثلاثة بعضها عن البعض الآخر ، وأعني بها الكلام والفقـه والتصوف أمر ظهر في الإسلام في وقت متأخر (منذ القرن الثالث الهجـري ومـا بعـده) نتيجة التخصص العلمي الدقيق ، فسار كل علم في مساره الخاص علـى قواعـد ومنـاهج خاصة ، وتميز من غيره بموضوعه ومنهجه وغايته [5]، أما قبل ذلـك فكـان اسـم الفقـه يطلق ـ ليس فقط على الأحكـام الـشرعية العمليـة ـ وإنمـا يطلـق أيـضاً علـى الأحكـام الاعتقادية والأحكام الأخلاقية ، يدلنا على ذلك ما ورد في كتاب (أبجـد العلـوم) قـال : علم الفقه ويسمى هو علم أصول الفقه بعلم الدراية أيضاً وهو معرفة الـنفس مالهـا ومـا عليها ، هكذا نقل عن أبي حنيفة ، ثـم مالهـا ومـا عليهـا يتنـاول الاعتقاديـات كوجـوب الإيمـان ونحـوه ، والوجـدانيات أي الأخـلاق الباطنـة والملكـات النفـسية ، والعمليـات كالصلاة والصوم والبيع وغيرها فالأول علم الكـلام والثـاني علـم الأخـلاق والتـصوف ،

(1) مدخل إلى التصوف الإسلامي لأبي الوفاء التفتازاني ص15 .

(2) مقدمة ابن خلدون ص328 – المطبعة البهية – مصر .

(3) الرسالة القشيرية ص86 .

(4) طبقات الشعراني جـ1 / 9 – دار العلم للجميع – 1959 – القاهرة .

(5) مدخل للتصوف الإسلامي ص 16 .

والثالث هو علم الفقه المصطلح [1]اهـ ، وذكر الغزالي أن الناس تصرفوا في اسم الفقه فخصوه بعلم الفتاوى ، والوقوف على دلائلها وعللها ، واسم الفقه في العصر الأول كان مطلقاً على علم الآخرة ومعرفة دقائق النفوس . [2]

نظرة إجمالية إلى مراحل تطور التصوف

بعد أن حددنا مفهوم التصوف في الإسلام بوجه عام يحسن بنا أن نشير إلى مراحل تطوره بإيجاز :

ـ المرحلة الأولى في نشأة التصوف هي التي تسمى بمرحلة الزهد ، وهي واقعة في القرنين الأول والثاني الهجريين ، فقد كان هناك أفراد من المسلمين أقبلوا على العبادة بالأدعية والقربات ونوافل الطاعات ، وكانت لهم طريقة زهدية في الحياة ، تتصل بالمأكل والملبس والمسكن ، وقد أرادوا العمل من أجل الآخر فآثروا لأنفسهم هذا النوع من الحياة والسلوك ، ونضرب لأولئك مثلاً الحسن البصري المتوفى سنة **110** هـ ورابعة العدوية المتوفاة سنة **185** هـ ، وفي نهاية القرن الثاني للهجرة بدأ الزهد يتحول من بسيط ساذج إلى عميق معقّد ، وأصبح ظاهرة جماعية في حياة منظمة لها قواعد وأصول ، وصار للزهاد حلقات يعقدونها للوعظ والقصص والتعليم تطورت فيها لتتحول إلى مدارس ، وأصبح الزهد حركة دينية واتجاهاً خاصاً في الحياة [3].

ـ ومنذ القرن الثالث للهجرة ، نجد الصوفية قد عنوا بالكلام في دقائق أحوال النفس والسلوك ، وغلب عليهم الطابع الأخلاقي في علمهم وعملهم ، فصار التصوف على أيديهم علماً للأخلاق الدينية ، وكانت مباحثهم الأخلاقية تدفعهم إلى التعمق في دراسة النفس الإنسانية ودقائق أحوال سلوكها ، وكانت تقودهم أحياناً إلى الكلام في المعرفة الذوقية وأدواتها ومناهجها ، وإلى الكلام على السماع الصوفي خصوصاً على يد البسطامي ، ونشأ من ذلك كله علم التصوف ، من علم الفقه من ناحية الموضوع والمنهج والغاية ، له لغته الاصطلاحية الخاصة التي لا يشارك الصوفية فيها غيرهم ، ويحتاج فهم معانيها إلى جهد غير قليل ، وقد ظهر هذا العلم وهو كما أشرنا من

(1) أبجد العلوم حسن صديق خان ص559 .
(2) الاحياء 45/1 .
(3) التصوف الإسلامي للدكتور حسن عاصي – ص64 – مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر – ط1 – 1994 – بيروت .

قبل من فروع الشريعة بعد ظهور التدوين كما يشير إلى ذلك ابن خلدون قائلاً : (فلما كتبت العلوم ودونت ، وألف الفقهاء في الفقه وأصوله ، والكلام ، والتفسير ، وغير ذلك ، كتب رجال من هذه الطريقة في طريقهم ، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك ، كما فعله القشيري في الرسالة ، والسهروردي البغدادي في عوارف المعارف ، فصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط . . .) [1].

من ناحية أخرى ، نجد بعض شيوخ التصوف في القرنين الثالث والرابع الهجريين كالجنيد والسري السقطي والخراز وغيرهم ، يجمعون حولهم المريدين من أجل تربيتهم ، فتكونت لأول مرة الطرق الصوفية في الإسلام التي كانت آنذاك ولا تزال بمثابة المدارس التي يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علماً وعملاً [2].

ثم جاء الغزالي في القرن الخامس الهجري ، فلم يقبل من التصوف إلا ما كان متمشياً مع الكتاب والسنة ، ورامياً إلى الزهد والتقشف وتهذيب النفسي وإصلاح أخلاقها ، وقد عمق الغزالي الكلام في المعرفة الصوفية على نحو لم يسبق إليه ، وحمل على مذاهب الفلاسفة والمعتزلة والباطنية ، وانتهى به الأمر إلى إرساء قواعد التصوف المعتدل الذي عرف فيما بعد باسم التصوف السني .

ومنذ القرن السادس الهجري ، أخذ نفوذ التصوف السني في العالم الإسلامي يزداد بتأثير شخصية الغزالي ، وذيوع صيته عليه ـ رحمه الله ـ وظهر صوفية كبار كونوا لأنفسهم طريقاً لتربية المريدين ، منهم السيد أحمد الرفاعي المتوفى سنة **570** والسيد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة **651** ، ومن المعتقد أنهما متأثران بشخصية الغزالي وتصوفه . ثم ظهر في القرن السابع الهجري شيوخ آخرون ، ساروا على الطريقة نفسها أبرزهم أبو الحسن الشاذلي المتوفى سنة **656** وتلميذه أبو العباس المرسي المتوفى سنة **686** وتلميذهما ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة **709** ، وهم أركان المدرسة الشاذلية في التصوف ، ويعدُّ تصوفهم امتداداً لتصوف الغزالي السني .

على أنه منذ القرن السادس الهجري أيضاً نجد مجموعة أخرى من شيوخ التصوف الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة ، فجاءت نظرياتهم بين بين ، لا هي تصوف

(1) مقدمة ابن خلدون 329 .

(2) مدخل إلى التصوف الإسلامي للتفتازاني ص18 وما بعدها .

خالص ، ولا هي فلسفة خالصة ، نذكر من هؤلاء السهروردي المقتول صاحب (حكمة الإشراق) المتوفى سنة **549** ، والشيخ الأكبر محي الدين بن عربي المتوفى سنة **638** ، وسلطان العاشقين الشاعر الصوفي المصري عمر بن الفارض المتوفى سنة **632** ، وعبد الحق بن سبعين المرسي المتوفى سنة **669** هـ ، ومن نحا نحوهم في التصوف ، وقد قدم لنا أولئك الصوفية نظريات عميقة في النفس والأخلاق والمعرفة والوجود [1] لها قيمتها من الناحيتين الفلسفية والتصوفية ، كما كان لها تأثيرها على من تلاهم من الصوفية المتأخرين .

وبظهور متفلسفة الصوفية الذين ذكرنا بعضهم ،أصبح في التصوف الإسلامي تيارين : أحدهما سني يمثله رجال التصوف المذكورون في رسالة القشيري ، وهم صوفية القرنين الثالث والرابع الهجريين خصوصاً ، ثم الإمام الغزالي ، ثم من تبعهم من شيوخ الطرق الكبار ، وكان تصوف هؤلاء جميعاً يغلب عليه الطابع الخلقي العملي .

والتيار الآخر فلسفي ، يمثله بعض من ذكرنا من متفلسفة الصوفية الذين مزجوا تصوفهم بالفلسفة ، وقد أثار متفلسفة الصوفية بعض فقهاء المسلمين واشتدت الحملة عليهم ، ونحن أزاء ذلك لا نملك إلا أن نقول : ﴿**فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ [2] ولكن هناك أمر مهم أحب أن أنبّه إليه ، وهو أن التصوف الإسلامي ، وإن كان قد تأثر في مراحل معينة من تطوره بالفلسفة وأخذ بعض اصطلاحها واصطبغ بصبغتها ، إلا أنه من حيث نشأته الأولى إسلامي خالص ، وقد أخطأ الكثير من المستشرقين ، وتلامذتهم الذين عنوا بدراسة التصوف الإسلامي برده إلى مصادر أجنبية عن الإسلام ، وقد صدرت عن بعض المستشرقين شهادات وإفادات أعلنوا فيها رجوعهم وعدولهم عن هذا الرأي ، وخطّأوا غيرهم من القائلين به ، يقول نيكولسون : (كل الأفكار التي وصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية ، إنما هي وليدة الزهد والتصوف اللذين نشآ في الإسلام ، وكانا إسلاميين في الصميم) [3]، ومن المستشرقين الذين نظروا إلى مسألة مصدر التصوف نظرة علمية منصفة الأستاذ ماسنيون ، وهو مستشرق فرنسي كرّس جهوده العلمية لدراسة التصوف الإسلامي، وقد اتخذ لإثبات نظريته في التصوف منهجاً علمياً دقيقاً هو

(1) التصوف الإسلامي للدكتور عاصي ص71 .

(2) سورة البقرة الآية 112 .

(3) في التصوف الاسلامي وتاريخه (نيكولون) ترجمة الدكتور أبو العلاء عفيفي .

بحث مصطلحات الصوفية ، وارجاعها إلى مصادرها الأولى من القرآن والحديث والفقه ، ومصطلحات المتكلمين الأوائل .

وأصبح بعض المستشرقين المعاصرين يميلون بقوة إلى الأخذ بالرأي القائل إن التصوف من مصدر إسلامي خالص ، وإن الأثر الأجنبي في مجاله محدود للغاية وإن تطوره يتبع خطًّا إسلامياً واضحاً ، ومن أمثلة هؤلاء المستشرق الانجليزي سبنسر ترمنجهام حيث يقول : (إن التصوف الإسلامي تطور طبيعي داخل حدود الإسلام) [1]إلى غير ذلك مما يطول نقله في هذا المجال .

على أنه قد أصاب الطرق الصوفية في العصور المتأخرة ، منذ بداية القرن التاسع إلى العصر الحاضر ، شيء من التدهور فاتجه أصحابها من الناحية العلمية إلى شرح وتلخيص كتب المتقدمين [2]، أما من الناحية العملية فقد عنوا بضروب من الطقوس والشكليات ، أبعدتهم في كثير من الأحيان من جوهر التصوف ، ودعوة رجاله الأوائل ، وكثر اتباع التصوف والطرق الصوفية في العصور المتأخرة ولكن لم تظهر من بين هذه الكثرة شخصيات لها ما لشخصيات التصوف الأولى ، من مكانة روحية مرموقة إلا ما قلّ ، ومن بين الشخصيات المرموقة في هذا الدور الشيخ عبد السلام الأسمر ، والشيخ أحمد زروق ، والشيخ أحمد التيجاني ، ومحمد علي الخطابي ، والشيخ عثمان بن فودي رحمة الله عليهم جميعاً .

أهمية التصوف ودوره في حياة الفرد والمجتمع

أولاً / أهمية التصوف في حياة المسلم كفرد

إن التكاليف الشرعية التي أمر بها الإنسان في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين : أحكام تتعلق بالأعمال الظاهرة ، وأحكام تتعلق بالأعمال الباطنة ، أو بعبارة أخرى : أحكام تتعلق ببدن الإنسان وجوارحه ، وأحكام تتعلق بقلبه وروحه . فالأعمال البدنية نوعان : أوامر ونواهٍ ، فالأوامر الإلهية هي كالصلاة والزكاة والحج وغيرها ، وأما النواهي فهي كالقتل والزنا والسرقة وشرب الخمر . وأما الأعمال القلبية فهي أيضاً : أوامر ونواهٍ ، أما الأوامر فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . . . وكالإخلاص والرضا والصدق والخشوع والتوكل . وأما النواهي فالكفر والنفاق والكبر والعجب والرياء

(1) (الطرق الصوفية في الإسلام) ترمنجهام ، نقلاً عن التفتازاني ص137 .
(2) التصوف الاسلامي للدكتور حسن عاصي ص73،72 .

والغرور والحقد والحسد .

والقسم الثاني المتعلق بالقلب أهم من القسم الأول عند الشارع ــ وإن كان الكل مهماً ـ لأن الباطن أساس الظاهر ومصدره ، وأعماله مبدأ أعمال الظاهر ، ففي فساد الباطن إخلال بقيمة الأعمال الظاهرة [1].

ولهذا كان رسول الله ﷺ يوجه اهتمام الصحابة لإصلاح قلوبهم ، ويبين لهم أن صلاح الإنسان متوقف على إصلاح قلبه ، وشفائه من الأمراض الخفية والعلل الكامنة ، وهو الذي يقول : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »[2]. كما كان ﷺ يُعلِمُ أصحابه أن محل نظر الله إلى عباده إنما هو القلب : « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[3] .

فما دام صلاح الإنسان مرتبطاً بصلاح قلبه الذي هو مصدر أعماله الظاهرة ، تعين عليه العمل على إصلاحه بتخليته من الصفات المذمومة التي نهانا الله عنها ، وتحليته بالصفات الحسنة التي أمرنا الله بها ، وعندئذ يكون القلب سليماً صحيحاً ويكون صاحبه من الفائزين الناجين : ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [4].

قال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله : « وأما علم القلب ومعرفة أمراضه من الحسد والعجب والرياء ونحوها فقال الغزالي : إنها فرض عين »[5] . فتنقية القلب وتهذيب النفس من أهم الفروض العينية ، وأوجبِ الأوامر الإلهية بدليل ما ورد في الكتاب والسنة وأقوال العلماء .

فمن الكتاب العزيز :

1 ـ قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [6].

2 ـ وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [1].

---

(1) شفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون ص20 مطبعة بيروت 1959 .
(2) متفق عليه .
(3) مسلم حديث رقم 2564 .
(4) سورة الشعراء الآية 88 .
(5) الأشباه والنظائر للسيوطي ص504 .
(6) الأعراف الآية 30 .

والفواحش الباطنة كما قال المفسرون هي الحقد والحسد والرياء والنفاق وغيرها .

ومن السنة :

فكل الأحاديث التي وردت آمرة بالتحلي بالأخلاق الحسنة والأحاديث التي وردت في النهي عن الحقد والكبر والرياء والحسد ولا يتسع المقام لذكرها .

أما أقوال العلماء :

فقد عدَّ العلماء الأمراض القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة ، قال صاحب جوهرة التوحيد (2):

وأمر بعرف واجتنب نميمة ... وغيبة وخصلة ذميمة

كالعجب والكبر وداء الحسد ... وكالمراء والجدل فاعتمد

يقول العلامة ابن عابدين في حاشيته الشهيرة : (إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين ، ومثلها غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمداهنة والاستكبار عن الحق والمكر والمخادعة والقسوة وطول الأمل ونحوها . . . وإزالتها فرض عين ، ولا يمكن إلا بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها ، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه) (3).

إن التصوف الإسلامي هو الذي اهتم بهذا الجانب القلبي ، بالإضافة إلى ما يقابله من العبادات البدنية والمالية ، ورسم الطريق العملي الذي يوصل المسلم إلى أعلى درجات الكمال الإيماني والخلقي . وإن التصوف منهج عملي يحقق انقلاب الإنسان من شخصية منحرفة ، يعوزها التوافق النفسي والاجتماعي إلى شخصية مسلمة مثالية متكاملة ، وذلك من الناحية الإيمانية السليمة والعبادة الخالصة والمعاملة الصحيحة الحسنة والأخلاق الفاضلة (4).

---

(1) الأنعام الآية 151 .
(2) جوهرة التوحيد البيتان رقم 134 – 135 .
(3) حاشية ابن عابدين ، 31/1 مطبعة بولاق بمصر 1323 هـ .
(4) حقائق عن التصوف ص34 ، دار العرفان ط 11 – 2001 حلب سوريا .

ومن هنا تظهر أهمية التصوف وفائدته ، ويتجلى لنا بوضوح أنه روح الإسلام وقلبه النابض ، إذ ليس هذا الدين أعمالاً ظاهرة وأموراً شكلية فحسب لا روح فيها ولا حياة ، وما وصل المسلمون إلى هذا الدرْك من الانحطاط والعنف والضعف إلا حين فقدوا روح الإسلام وجوهره ، ولم يبق فيهم إلا شبحه ومظاهره .

هذا على المستوى الفردي الذي يهم كل مسلم في خاصة نفسه ، أما على المستوى الاجتماعي فقد قام رجال التصوف بدور كبير ، وكان لهم حضور فعّال في مجتمعاتهم ، ملأ جميع نواحي الحياة ومجالاتها بالخير والصلاح والنهضة الشاملة ، وذلك في مجال الدعوة للإسلام والجهاد في سبيل الله والعمل المثمر وتربية الناشئة ، وتحصين عقولهم من جميع التيارات الضارة التي تريد أن تعصف بهم ذات اليمين وذات الشمال ، فلا يخفى على أحد الدور الذي قام به رجال التصوف المخلصون في بلادنا في أحلك الظروف التي مرت بها أمثال الشيخ عبد السلام الأسمر ، وشيخه الدوكالي ، والشيخ زروق ، والشيخ عمر المختار ، وآل الحضيري بسبها وغيرهم .

وأينما وليت وجهك في شرق العالم الإسلامي أو في غربه ، تجد رجال التصوف قد سطّر لهم التاريخ صفحات من نور ، واحتفظ بمآثرهم الغالية ، وحدثنا عن الكثير من إنجازاتهم وأياديهم البيضاء . يقول أبو الحسن الندوي : « إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة . . . ولولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهند بحضارتها وفلسفتها الإسلام» . (1) أهـ ، وويقول الأمير شكيب أرسلان : « إن أسباب النهضة الأخيرة في أفريقيا راجعة إلى التصوف والاعتقاد بالأولياء» . (2)أهـ ويقول السيد محمد رشيد رضا : «لقد انفرد الصوفية بركن عظيم من أركان الدين لا يطاولهم فيه متطاول وهو التهذيب علماً وخلقاً وتحقيقاً» . (3) أهـ . ويقول حسين مؤنس في كتابه تاريخ المغرب وحضارته : «لعب الصوفية في المغرب دوراً في غاية الأهمية ، تمثل في زوال العصبية القبلية وسائر الروابط الاجتماعية لتحل محلها الطرق الصوفية . . . وعلى أيدي مقدمي هذه الطرق نال الألوف البركة التي أصبحت القوة المعنوية وبر الأمان بالنسبة للإنسان المغربي العادي الذي أهلكت قومه القبلية العصبية والحروب والنظم السياسية ، ولم يجد الأمان إلا في عشيرته الصوفية التي

(1) المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي ص140 مكتبة دار الفتح – 1381 هـ ، دمشق – سوريا .
(2) حاضر العالم الاسلامي 393/2 دار الفكر ط3 سنة 1971 .
(3) مجلة المنار السنة الاولي ص726 .

حلت محل القبلية »[1] اهـ .

ويقول الأستاذ صبري عابدين : « الواقع إن الصوفية ينشرون الإسلام في العالم وأذكر لكم أنه منذ خمسين عاماً كتب الشيخ البكري كتاباً ذكر فيه نقلاً عن المبشرين ــ المسيحيين ـ أنهم يقولون : ما ذهبنا إلى أقاصي المناطق البعيدة عن الحضارة والمدنية في أفريقيا وأقاصي آسيا ، إلا وجدنا الصوفي يسبقنا إليها وينتصر علينا ، ليت المسلمين يفهمون ما في الصوفية من قوة روحية ومادية ، فجنودهم مجندة للإسلام ورأيت على حدود الحبشة والسودان وأريتريا بعثة سويدية للتبشير ووجدت إلى جانبهم أكواخاً أقامها الصوفيون ، وأفسدوا على المبشرين السويديين إقامتهم أربعين سنة » [2] [2] . أهـ .

وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه « رجال الفكر والدعوة في الإسلام» عن الصوفي الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ فقال : « وكان يحضر مجلسه نحو من سبعين ألفاً ، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى وتاب على يديه من العيارين والمسلحين أكثر من مائة ألف وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا الله وصلحت أحوالهم وحسن إسلامهم ، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان ، ثم يجيز الشيخ كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية ، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله ويربون النفوس ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق فتنشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي » [3] أهـ .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : « ... وانتشار الإسلام في أفريقيا السوداء جنوبي الصحراء ، السنغال ومالي والنيجر وغينيا وغانا ونيجيريا وتشاد ، إنما يرجع الشطر الأكبر من الفضل فيه إلى الطرق الصوفية . . . فكانت الزوايا والرباطات التي أسسها شيوخ هذه الطرق مراكز النشر الدعوة الإسلامية بين الشعوب الوثنية في غربي

(1) تاريخ المغرب وحضارته ، مؤنس 88/3 وما بعدها – بيروت 1992 .
(2) مجلة لواء الإسلام العدد العاشر للسنة التاسعة 1956 .
(3) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص248 .

القارة الأفريقية وقلبها ، ومردّ هذا خصوصاً إلى اختلاط الصوفية بالطبقات الشعبية في هذه البلاد وعيشهم بين العالة والفقراء ، مما أبدى لهؤلاء نماذج حية تتصف بالتقوى والإصلاح إلى جانب ما تقوم به هذه الطرق من خدمات اجتماعية وألوان من البر والإحسان والمؤسسات والمؤاخات . . . » (1).

إن الطرق الصوفية أشبه بالمدارس التربوية التي تضم إلى العلم والثقافة ممارسة عملية تطبيقية ، فهي تنطلق في نشاطها على ضوء الفكر والوجدان ، لأن علاقة المريدين (التلاميذ) بشيخهم علاقة حب واحترام لا نجدها في كثير من المؤسسات التربوية الأخرى ، وبهذا الرباط يمكن توجيههم بسهولة ويسر ، وكانت لهم وقفات صامدة على مدى التاريخ في مقاومة الاستعمار وفي إقامة المنشآت الدينية (2).

ويقول سيد نور بن علي : « إن مشائخ الصوفية قاموا بخدمات جليلة في حقل الدعوة الإسلامية وبلغوا رسالة الإسلام الخالدة إلى الخلائق ، وتركوا بيوتهم وديارهم وسافروا إلى أقصى بلاد الشرق والغرب وفتحوا أقفال قلوب الناس بالأخلاق العالية والكرامات الباهرة التي أجراها الله على أيديهم فدخل الناس في دين الله أفواجاً » (3). اهـ .

ويقول الدكتور أبو العلا العفيفي : « إذا أردنا أن نبحث عن العاطفة الدينية الإسلامية في صفائها ونقائها وعنفها وحرارتها وجدناها عند الصوفية ، فلولا التصوف لكان الإسلام كما فهمه المتزمتون من الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة ديناً خالياً من الروحانية العميقة ، ومن العاطفة الدينية الجياشة ولكانت عباداته ومعاملاته مجموعة جامدة من القواعد والأشكال والأوضاع ، ومعتقداته مجموعة من التجريدات أقل ما يقال عنها أنها تباعد بين العبد وربه بدلاً من أن تقربه إليه ، وتورث صاحبها الشك والحيرة والقلق بدلاً من الطمأنينة واليقين » (4) اهـ .

هذا غيض من فيض مما للتصوف الإسلامي ورجاله من دور بارز ، وأثر فعال أثبت وجوده وجدواه على مر السنين والأيام .

---

(1) تاريخ التصوف الإسلامي للدكتور عبد الرحمن بدوي ص25 وكالة المطبوعات – الكويت .
(2) بيان للناس من الأزهر الشريف جـ 2 / 39 .
(3) التصوف الشرعي ص47 .
(4) التصوف الثورة الروحية في الإسلام لأبي العلاء عفيفي ص55 طبع سنة 1962 – القاهرة .

خاتمة وتوصيات

بعد هذه الجولة الخاطفة مع مفهوم التصوف الإسلامي ، وبيان التطور الذي اعتراه من حيث الفكرة والسلوك ، وبيان الدور الرائد للتصوف ورجاله في حياة أممهم ومجتمعاتهم ، أقول : لقد ظلم التصوف الإسلامي في كثير من قراءات الناس له ، ربما بسبب المصطلح كما يذكر البعض ، وربما بسبب انحراف بعض المنتسبين إليه ، وربما بسبب حرب بعض الاتجاهات الفكرية له وهذه الأسباب وغيرها ، بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها ، تقرر حقيقة أن هذا الجزء من تراث المسلمين أصابه قسط كبير من الظلم لا نغالي إذا قلنا لم يصب بمثله جزء آخر من تراث حضارتنا .

ورغبة في الإفادة من تراثنا الروحي في حياتنا المعاصرة ، ورغبة في إنصاف هذا الجزء من تراثنا وتفعيل الجوانب الإيجابية فيه للإفادة منها ، وتحويلها إلى واقع معاش وسلوك عملي في حياتنا ، فإنني أخلص إلى الخاتمة والتوصيات الآتية :

1ــ ينبغي على القارئ المسلم أن يلتزم بضوابط منهجية لقراءة التصوف الإسلامي منها :

أ ـ ضرورة تجاوز نقاط الخلاف الشكلية والدخول إلى مضمون التصوف ليرى أنه من صميم الإسلام .

ب ـ ضرورة القراءة في تجرد واستقلال فكري دون إعطاء أحكام مسبقة .

جـ ـ ضرورة تحديد المصطلحات المتصلة بالتصوف الإسلامي ، والبحث عن جذورها اللغوية والشرعية .

2 ـ ضرورة دراسة التصوف دراسة منهجية في الجامعات ومراكز البحث العلمي لتبني التصوف السنِّي ، وتقوية نفوذه ووجوده في الأوساط العلمية والشعبية لتصحيح فكرة المسلم عن جزء مهم من تراثه التليد .

3 ـ الاهتمام برعاية الشباب والنساء وإنقاذهم من الفراغ الروحي الذي جلبته وسائل الحضارة المعاصرة .

4 ـ الاستفادة من مناهج الصوفية الأوائل ووسائله في الدعوة إلى الله وتربية الناشئة وبث الأخلاق الفاضلة والآداب الشرعية بين أبناء المجتمع .

5 ـ ضرورة قيام حركة علمية تدور حول دراسة التصوف ونشر أسفاره

وتمحيص موضوعاته ، وطرح ما لحق به من شطحات وخرفات ودسائس وعدم ترك هذا الجزء من تراثنا لعبث العابثين من المستشرقين والحاقدين على الإسلام وتراثه وحضارته .

أسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، ويوفقنا لما يحب ويرضى إنه سميع مجيب .

مراجع البحث ومصادره

القرآن الكريم

1. أبجد العلوم ، حسن صديق خان .
2. إحياء علوم الدين . أبو حامد الغزالي ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ، 1992 ، بيروت
3. أصول الفقه الإسلامي ، زكي الدين شعبان ، دار الكتب ، الطبعة الثانية ، 1971 بيروت .
4. بيان للناس من الأزهر الشريف ، جمع وتقديم جاد الحق على جاد الحق .
5. تاريخ التصوف الإسلامي . عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، الكويت .
6. تاريخ المغرب وحضارته . حسين مؤنس طبع سنة 1992 ، بيروت .
7. التصوف الثورة الروحية في الإسلام . أبو العلاء العفيفي طبع سنة 1962 ، القاهرة .
8. التصوف الشرعي الذي يجهله كثير من مدّعيه ومنتقديه ، سيد نور بن سيد علي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى 2000 ، بيروت .
9. حاشية ابن عابدين ، مطبعة بولاق 1323 هـ ، مصر .
10. حاضر العالم الإسلامي . شكيب آرسلان ، دار الفكر الطبعة الثالثة ، 1971 .
11. حقائق عن التصوف . عبدالقادر عيسى ، دار العرفان الطبعة الحادية عشرة (2001 حلب سوريا) .
12. رجال الفكر والدعوة في الإسلام أبو الحسن الندوي .
13. الرسالة القشيرية بتحقيق هاني الحاج ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .
14. سنن ابن ماجة . أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ، تحقيق صدقي العطار ، دار الفكر ، 2004 بيروت .
15. شرح جوهرة التوحيد . إبراهيم الباجوري ، مراجعة وتقديم عبد الكريم الرفاعي ، دمشق 1391 هـ .
16. شفاء السائل لتهذيب المسائل . ابن خلدون مطبعة بيروت 1959 .
17. صحيح مسلم ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى 1998 بيروت .
18. الطبقات الكبرى (المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار) عبد الوهاب الشعراني دار العلم للجميع ، 1959 ، القاهرة .
19. في التصوف الإسلامي وتاريخه (نيكولون) ترجمة الدكتور أبي العلاء العفيفي .

20. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس إسماعيل بن محمد العجلوني ، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ، **1997** ، بيروت لبنان .
21. مجلة الإصلاح الاجتماعي ، حلب ، سوريا .
22. مجلة المنار محمد رشيد رضا ، السنة الأولى .
23. مجلة لواء الإسلام العدد العاشرة السنة التاسعة ، **1956** .
24. مدارج السالكين شرح منازل السائرين ابن قيم الجوزية ، مطبعة المنار **1332** هـ .
25. مدخل إلى التصوف الإسلامي . أبو الوفا الغنيمي التفتازاني ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ، القاهرة .
26. المسلمون في الهند لأبي الحسن الندوي ، مكتبة دار الفتح **1381** هـ ، دمشق ، سوريا .
27. الموطأ ، دار الافاق الجديدة ، الطبعة الثانية **1981** بيروت ، لبنان .
28. المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون ، المطبعة البهية بمصر .
29. التصوف الإسلامي للدكتور حسن عاصي ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، **1994** ، بيروت .